

عندما خرج من القمم وجد نفسه منذ اللحظة الأولى في عالم عِدائِي، في عالم يريد به الشر، بل الموت. لذلك صرخ متوسلاً : «يا نبي الله لا تقتلني فيأتي لا عدتْ أخالفُ لك قولاً ولا أعصي لك أمراً». لقد التبس عليه الأمر فحسب أنه واقف أمام النبي سليمان وبادر إلى الإعلان عن توبته. وما أن تبينت له الحقيقة حتى سارع إلى إعلان عقوبته؛ أقول العقوب لأنَّ الصياد يمتن عليه بأنه خلّصه وأخرجه إلى الدنيا ومنحه الحياة؛ بعبارة أخرى : يمتنُّ عليه بأبوته. إنَّ علاقة الجنّي بالصياد تشبه إلى حدّ كبير علاقته بسليمان. لقد عاش التجربة نفسها مرّتين، مرّة مع سليمان ومرّة مع الصياد. في كلتا الحالتين تتكرّر الأفعال نفسها : التمرد، ثم العقاب، ثم التوبة. فرغم المسافة الشاسعة بين النبي والصياد، فإنّ لهذا الأخير بعض الخصائص المرتبطة بسليمان. أليست له القدرة على النقض والإبرام، على الحلّ والعقد، على الفتح والإغلاق؟ إنّه يسيطر على الحيوان (السمك) وعلى الجن (العفريت) بل وعلى البشر كما يظهر ذلك في نهاية الحكاية («وأما الصياد فإنّه قد صار أغنى أهل زمانه»).

قلت إنّ علاقة الجنّي بالصياد تماثل علاقته بسليمان، ومع ذلك لا ينبغي أن نفعل اختلافاً أساسياً بين الحالتين. إنّ ما حدث للعفريت مع الصياد جعله يتصالح مع العالم ومع الحياة، فتخلّى عن حقه وضغينه وتوحّشه. لذلك أطلق الصياد سراحه، لأنّ المخلوقات المدجّنة لا تحتاج إلى وثاق.

وهنا بالذات يبرز التماثل القوي بين حكاية الصياد مع العفريت وحكاية شهرزاد مع شهريار. شهرزاد استعملت هي الأخرى حكمتها ودهاءها لاقتلاع جذور البغض والهمجية من نفس شهريار فتحوّل في النهاية إلى شخصٍ وديعٍ أليف. جلّ حكايات ألف ليلة وليلة تبين أنّه مهما اتّسعت الهوة بين شخصين، فإنّ بالإمكان تحويل العلاقة المبنية على العنف والقهر إلى علاقة مبنية على الرقة والوداعة، بفضل العقل والإقناع. ولعلّ هذه النظرة المتفائلة من الأسباب التي تحبب الكتاب إلى الصغار والكبار.